من قتل فريد الأطرش ؟!

بقلم : جورج إبراهيم الخورى

الأستاذ جورج إبراهيم الخورى هو الصحفى اللبنانى المعروف . . ورئيس تحرير مجلة « الشبكة » . . والصديق الذى اختارته نقابة المحررين فى لبنان لكى يتحدث عن المرحوم فريد الأطرش .

وقد حالت ظروف الأستاذ جورج إبراهيم الخورى من الحضور إلى القاهرة بنفسه . . فأرسل إلينا هذا الفصل من بيروت . . حرصاً من جانبه على المساهمة فى هذا الكتاب . . وتجاوباً مع الفكرة التى تحرص عليها لجنة تكريم الموسيقار فريد الأطرش .

شرف لى أن أكتب فى هذا المقام عن فريد باسم نقابة المحررين اللبنانيين . وشرف أن ترتفع إلى هذا المقام نقابات الفن فى لبنان .

وشرف أن ترتقى هذه الرفعة إلى سدة تكريم من كنت أشتهى أن يكون تكريمه فى حال حياته ، ولكن . . .

كم قتلت وكم قدمت عندكم
ثم انتفضت فزال القبر والكفن
قد كان شاهد دفنى قبل قولهم
جماعة ثم ماتوا قبل من دفنوا
ما كل مايتمنى المـرء يدركه
تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

أبو الطيب المتنبى سبقنا زمناً فى التمنى اليائس ، حتى ذهب يأسه مثلا وحكمة . . ولو أنه عاش فى عصر الأمير الفنان فريد الأطرش ، لا فى عصر الملك الأستاذ كافور ، لما توانى عن إنشاده :

وما طربى لما رأيتك بدعـــة
لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب

وتعذلني فيك القوافي وهمتي
كأني بمدح قبل مدحك مذنب
ولكنه طال الطريق ولم أزل
أفتش عن هذا الكلام وينهب
فشرق حتى ليس للشرق مشرق
وغرب حتى ليس للغرب مغرب

كان أميراً وكان أستاذاً . . أمير أصل وفصل وحسب . . وأستاذ فن وعود طرب . .

وحبنا له نحن هنا فى لبنان ، لم يكن فقط حب أذن لصوت ، أوحس لوتر ، أو قلب لحب ، بل كان أقوى وأوثق وأعمق جذوراً . كان – وقد ندرى هذا أو لا ندرى – حب العرق للعرق ، والعصب للعصب ، والدم للدم .

إن فريداً الأطرش كان لكل العرب ، ولكنه كان فى الأصل لبنانياً .

كان من جبل لبنان قبل أن يسترد جنسيته الأصلية بهوية تتعانق فوقها أرزة الرب !

الأمراء الطرشان فى الجبل الأشم . . جبل الدروز الأجاويد . . هم كما يقول مؤرخوهم من الأمراء المعنيين . . من سلالة الأمير اللبنانى البطل فخر الدين المعنى . .

وقد نزح الأمراء المعنيون عام ألف وسبعمائة ، منذ مائتين وخمس وسبعين سنة ، إلى سورية الحبيبة . . سورية الشقيقة . . سوريةالبطلة . . واستوطنوا جبل العرب الذى تفجرت منه ينابيع الأحرار والرجال والأبطال . .

من صلبهم انحدر أول موسيقار لهم يحمل اسم عائلتهم النبيلة . . وللحق والعدل والتاريخ نسجل أن أمراء الجبل كانوا متحفظين فى الخط الذى انتهجه ابنهم فى طريق الفن . . . .

فالفن لم يكن يتفق فى مطلع هذا القرن مع الأعراق والرصانات والتقاليد . .لكن

الأمير الشاب فريد الأطرش الذى ولد الفن فى دمه . . كما ولد الطموح والانفشاع واستباق الزمن . . أصر وغنى واحترف . . .

عندئذ انعقد مجلس العائلة العريقة . . وقرر مراقبة فريد فى حقله الجديد . . حتى إذا ما حافظ على مستواه ومستوى الجبل . . باركوه . . وإلا حاسبوه . . .

وبعد سنوات باركوه وعانقوه وجللوه بأكاليل الغار . . . كان فريد يفاخر بالإنتساب إلى جبل العرب ، فإذا بكل الجبال العربية تفاخر بالانتساب إليه .

خلق ونبل وشهامة عربية .

ونبوغ وتصور وعبقرية موسيقية .

وعطاء واقتدار وقيمة فنية .

ولو ساد العقل فى الناس لما كان الرسل الأنبياء . . ولو سادت الحكمة لما كان الفلاسفة والحكماء . . .

ولو ساد الفن الرفيع . . لما كان فريد الأطرش . .

ولما كنا هنا نحيي ذكراه . .

ذكراه ياما أمرها على قلوب الذين يتذكرون . .

فالذكرى أخت الرحيل . . .

والذكرى بنت الغروب . . .

والذكرى أم الغياب . . الغياب الأبدى .

ولكن ، هل يغيب من نسمع صوته فى كل الأقطار ؟

هل يغيب من نطرب لشدوه على جميع موجات الأثير ؟

هل يغيب من تتردد ألحانه على سائر الحناجر ؟

هل يغيب من ترتسم صورته على صفحات الصدور ؟

هل يغيب من خلد الشرق فى موسيقاه ، وفتح للفن معاهد الجمال ، وشق للغناء

دروب الأزل ؟

هل يغيب من هدم بفنه كل السدود ، واجتاز بصوته كل الحدود ، وجعل من بلاد العرب جامعة « عربية » حقيقية ، تلتقى كلها فى المعهد الموسيقى ؟

هل يغيب من سقاه فنه من تربة كل أرض سمراء ، فإذا هو حامل جنسية روحية من كل بلد عربى ، وحامل جنسية رسمية من سوريا ومصر ولبنان والسودان ؟ مثله لا يغيب .

ومثلنا يفاخر الأجيال بأنه عاش فى عصر فريد الأطرش .

عايشناه حياً ، وعايشناه راحلا . . . حى الجسد والروح ، وراحل الجسد وحده .

نحن سعداء بهذه المفاخرة التى وفرها لنا الموسيقار الكبير الراحل .

ومن عجب الدنيا أن تنبثق السعادة أحياناً فى معرض الحزن . . وينبثق الحزن فى معرض السعادة .

* * *

فباسم نقابة المحررين اللبنانيين .

وباسم نقابات أهل الفن فى لبنان .

وباسم كل من يؤمن بالفن وبرسالته السامية .

نطالب الدولة هنا – فى لبنان – بأن تقيم لفريد الأطرش فى لبنان تمثالاً . . وإذا أردنا التحديد ، فليكن هذا التمثال على مدخل المربع العالى ، مربع البيسين فى عالية . . فى عروس المصايف التى طالما أسهم فريد الأطرش فى إنعاشها وازدهارها وإحيائها .

هناك على تلك الرابية . . يرتفع التمثال . . وهنا على هذا المنبر . . تنتصر الكلمة وهى تعظم فناناً رفع للجمال فى كل قلب مثالا ، واختار لبنان . . وطنه الأصلى الأصيل . . ليكتب فيه آخر كلمة من كلمات حياته وآخر حرف من حروف

خلوده ، بعد أن اختطفه منا الموت .

ولقد بدأت رحلة فريد الأطرش مع الموت . . . قبل أن يموت فعلا بشهرين !

فقبل وفاته بشهرين كان فى القاهرة يمثل آخر لقطات فيلمه الجديد « نغم فى حياتى » فى إحدى فيلات شارع سليمان باشا . . عندما قال له المخرج هنرى بركات : — يجب أن تستبدل بنطلونك هذا ببنطلون آخر . وخلع فريد بنطلونه ، ثم نزع منه كل مايحتويه من نقود وأوراق و . . . . مصحف صغير موضوع فى كيس ذهبى اعتاد أن يدسه فى الجيب الأمامى ضماناً لحفظه وصيانته وعدم ضياعه . ومثل ماتتطلبه اللقطات ، وعاد إلى الطاولة ، ثم ارتد صارخاً : طار المصحف .

وتقدمت منه صديقته ورفيقته ومديرة أعماله دينيز جبور . . وقالت له :

— مابك تصرخ ؟

قال وهو ينقب فى الطاولة وتحتها وحولها .

المصحف يادنيز ، تركته هنا !

وبحثت دنيز عن المصحف فلم تجده . . . وسألت عنه جميع العاملين فى حقل تلك الفيلا ، فلم تلق رداً . . .

لقد امتدت إليه يد خفية وسرقته . . . وأطرق فريد وهو يلهث ، ثم بدت على وجهه المتجهم علامات التشاؤم وهو يقول . . .

خلاص . . . انتهى الأمر !

وقالت له صديقته :

— ماهو الأمر الذى انتهى ؟

قال فريد وقد لمعت عيناه الغائرتان ببريق دمع :

كان هذا المصحف ضمانتى وحرزى وصلاتى التى تبعد الشر عنى . . . أما الآن فقد أصبحت بلا سلاح مقدس .

قالت الصديقة :

– لاتخف . . يكفى أنك مؤمن بالله .

ولم يجب . . بل لملم نفسه ومشى . . كان هذا المصحف المبارك الثمين هدية عزيزة على قلب فريد ، من سامية جمال . . أهدته إياه منذ خمس وعشرين سنة ، يوم كانت فى قمة حبها له . . قالت له ذات ليلة من ليالى البحث عن تتويج ذلك الحب الكبير بالزواج .

– لا أملك أثمن من هذا المصحف لأقدمه لك عربون حب ووفاء . . احفظه يافريد . . لأنه يقيك من كل الشرور .

وحفظه فريد الأطرش طوال خمس وعشرين سنة . . لم يتركه يوماً واحداً . . وكان كلما اشتد به الألم وأحدق الخطر وعصف الشر أمسك بالمصحف وأغمض عينيه وهتف : يارب .

ويشعر إذ ذاك بقوة جبارة تتسلل إلى جسده فتشد أزره وتبعد عنه المخاوف والهواجس والأخطار .

والآن ، وبعد ماضاع المصحف أو سرق أحس فريد بما كان قد أحس به شمشوم الجبار إذ قصت دليلة شعره .

وتشاءم الموسيقار المؤمن وأطلق كلماته الثلاث الرهيبة :

(خلاص . . .انتهى الأمر)

آخر كلمات قرأها .

ومن يومها تبدل إحساس فريد الأطرش بالحياة . . . وكان كلما مد يده إلى جيبه الصغير باحثاً عن المصحف الضائع ، تمتم بصمت : ياساتر يارب .

. . إلى أن كانت رحلته الأخيرة إلى لندن .

لقد حان موعده المحدد فى لندن العاصمة البريطانية التى كانت تحمل بلسم

الشفاء لفريد فقرر أن يرحل فى الرابع عشر من شهر تشرين الثانى الماضى ،

وليلة سفره اتصل بنا نحن النخبة من أصدقائه وقال لنا :

ألا تأتون لتودعونى ؟

قلنا له :

– لقد جمعنا أنفسنا وقررنا السهرة فى بيتك هذا المساء لنودعك . .

واستراح على التليفون وقال بحبور :

يا الله . . .

كانت المرة الأولى التى يطلب فيها فريد من أصدقائه الحميمين أن يودعوه . . كان قلبه دليله . . وكان فى داخله صوت يدوى ويقول قد تكون هذه هى رحلتك الأخيرة يافريد . . .وساهرناه فى بيته .

ولاطفناه وسايرناه واستدرجناه فى قصصه الخاصة التى رواها بكثير من السلاسة والإثارة والتفاصيل الدقيقة . . الأمر الذى حمل أستاذنا الكبير سعيد فريحة على أن يقول له :

– أنت أخطر سينارست رأيته فى حياتى .

وما إن حلقت به الطائرة حاملة إياه مع رفيقته الدائمة دنيز جبور إلى لندن ، حتى كان صاروخ الشبكة يوجه إليه القذيفة التالية :

عزيزى فريد :

مساء الأربعاء الماضى سهرت فى بيتك الأنيق الذى تفوح من كل ركن فيه رائحة الفن . لأودعك ليلة سفرك إلى لندن فى رحلة سنوية تقليدية تعرض قلبك خلالها على صديقك البروفسور جيبسون ، وكان فى بيتك كل الذين تحبهم ويحبونك وهم نخبة مختارة من صفوة الأصدقاء والأقرباء والأحباب ، ومع أنك كنت متعباً ومرهقاً وخارجاً لتوك من أزمة صحية مداهمة استوجبت استدعاء طبيب إلا أنك سهرت وسايرت ورويت

قصصاً استدرجت أقاصيص . .

وأنت والحالة هذه . . أشرق وجهك وشعت ابتسامتك وبدوت وكأنك أنت السليم المعافى ونحن المرضى . . بك وبحبك وبشخصيتك الحلوة !

وأنا واثق من أن الدكتور جيسون لن يقول لك أكثر مما قاله فى السابق : عش كما أنت . . فأنت مثل لبنان . . فوضى منظمة . .

وأعتقد أن سر عمرك كله يكمن فى حبك للحياة ، وللناس ، وللأصدقاء بنوع خاص . . بينهم تحيا ، وبينهم تنتعش ، وبينهم تنسى قلبك ولكنك لا تنسى حبك وعطاءك وتضحيتك الدائمة .

من قلبى أتمنى لك عودة ميمونة إلى لبنان وإلى أهلك وعشيرتك وجماهير الشعب العربى الكبير الذى منحك كل هذه القدرة على الحياة .

وألف نقرة على خشب الورد .

وقرأ فريد القذيفة فى لندن كلينك وفرح بها . . أسعده أن يذكره محبوه فى غيابه كما يذكرونه فى حضوره . . فالوفاء كان عقدة الأطرش المزمنة . . وكان أكثر مايؤلمه ويعذبه ويمزق قلبه فوق ماهو ممزق أن يغدر به صديق كان يحسبه وفياً .

أقول هذا لأسجل أن فريداً كان سعيداً بآخر كلمات قرأها فى حياته وكانت هذه الكلمات من قلب الشبكة .

نصف القلب تعطل ،،

لكن السعادة الروحية التى وفرتها له الشبكة لم تلبث أن تبددت ليحل محلها الضيق والتبرم والثورة الجامحة . .

تضايق فريد فى لندن كلينك فتركه وتوجه إلى أوتيل هيلتون وهو فى أقصى حالات المرض . . . ثم مالبث أن سارع باستدعاء طبيبه المزمن جيسون الذى نقله فوراً إلى

برومبتون هو سبيتال . . . وأخضعه من جديد للفحص الدقيق . . . وهز الطبيب رأسه يأساً وقال له . . كنت تعيش بنصف قلب وها هو نصف النصف قد تعطل . . بت تعيش ياصديقى بربع قلب .

وتقول دنيز جبور :

وصعق فريد . . وازداد ارتباكه عندما تركه جيبسون مع مساعديه ليذهب إلى ألويك أند . . يذهب مساء الجمعة ولا يعود إلا صباح الاثنين تاركاً مريضه الموسيقار العربى الكبير فى حالة الخطر .

وتضيف دنيز :

والأخطر أن جيبسون منع عن فريد حبوب الديكوكسين التى تشد عضلات القلب طوال خمسة عشر يوماً . . لماذا . . لستأدرى كل ماأدريه أن حالة فريد الصحية والنفسية قد انهارت تماماً .

وأكثر – تستطرد دنيز – دهمت فريد نوبات بكاء . . . كان كلما لمح الدواء فى يد الممرضة بكى كالأطفال . . وصرخ : ارحمونى . . لم أعد أحتمل أى دواء . . وكان كلما أرخى الليل سدوله . . ورحل الزوار . . استسلم للبكاء والنحيب . . وكان كلما تلمس المصحف الشريف الذى أضاعه فى القاهرة سالت من عينيه الدموع وهتف : ياساتر يارب .

° ° °

وأخيراً . . قال الدكتور جيبسون لدنيز . .

– أنصحك بإرجاع فريد إلى وطنه . . وفهمت دنيز . . فهمت أن جيبسون نزع يده من فريد وأنه يفضل له أن يموت فى بيته وبين أهله وأقربائه وأصدقائه على أن يموت فى عاصمة الضباب التى لا أهل فيها ولا أقرباء ولا أصدقاء .

ثلاث سهرات وحلم مرعب . . .

وودع فريد الطبيب البريطانى الذى تعرف عليه منذ ثمانية عشر عاماً بقلب كامل ولوعليل وتدرج معه إلى نصف قلب . . ثم إلى نصف النصف ثم إلى دقات بطيئة مثاقلة . . كأنها دقـات الطبول الحزينة فى مجاهل الموت .

وفريـد لا ينام . . . إنه صديق الليل وعدو النهار . . فإلى أين يذهب وكل مافى لندن يغرى بالسهر . . ؟

ولأنه يحب أن يتسلى فقد ذهب إلى نادى بالم بيتش . . فلا شىء يخفف عن فريد ثقل الحياة مثل اللعب . . إن اللعب ينسيه مرضه . . ويعزله عن العالم الخارجى . . ويسكنه فى بيت مغلق تدور فيه « بلية » بيضاء حول سبعة وثلاثين رقماً مع الصفر . . اسمها الروليت . .

سهر هناك حتى الصباح . .

وطوال ثلاثة أيام سهر حتى الصباح . . ولم يبال بالخسارة سواء كانت بسيطة أو فادحة لأن فريداً لا يلعب ليكسب . . بل ليتسلى . . وفى اليوم الرابع لم يتسل بل نام فى الفندق نوماً عميقاً تخلله حلم مرعب .

حلم بأن المرحومة أمه السيدة علياء المنذر تتدثر باللباس الأسود وتبكى عليه . . وبالقرب منها تقف شقيقتها السيدة طرب بالحجاب الأسود وتشاركها البكاء .

وصحا من النوم مذعوراً وهو يروى لدنيز مارآه فى الحلم ويحاول أن يطمئن نفسه ويقول . . ولكن أمى لن تأخذنى إليها . . قالت له دنيز وهى تهدئ من روعه :

لاتخف ، كلنا نحلم ، ولا يتحقق شىء من أحلامنا . . .

- ولكنها لن تأخذنى إليها . .

– خيراً إن شاء الله . . يبدو أن نفسها تطلب الرحمة . . فصلى لأجلها . .

– دعينا نسافر ، أريد أن أرجع إلى بيتى . .

وفى الطائرة التى كانت تنقله من لندن لتعيده إلى بيته فى لبنان . . تردد على لسانه عبارة واحدة فقط :

يارب أوصلنى إلى بيتى . . ارحمنى ولا تدعنى أمت فى طائرة !

وكانت دنيز تكفكف دموعها الصامتة . . وتشاركه النداء فى سرها . . ثم تبتسم وتقول :

– كل عمرك وأنت تطلب من ربك ألا يميتك فى طائرة أو فى سيارة أو فى شارع فلا تخف . . إن الله يحب الذين يسبحونه بأصواتهم الجميلة . .

– أنت تعرفين أن من أقدس أمانى أن أموت على المسرح أمام الجمهور الحبيب . . ولكنى الآن فى طائرة . . وكل ما أرجوه أن أصل إلى بيتى حياً . .

– هل تسمح بأن تخلصنا من الحديث عن الموت . . يقطع الموت ويقطع ساعته . .

وأطلق فريد زفرة حرى من أعمق أعماق صدره وقال لدنيز :

يادنيز . . . إن أيامى معدودة . .

قالت دنيز :

بعيد الشر . . .

– أعطينى أيضاً حبة إيزورديل . .

– يكفى إيزورديل . . تناولت حتى الآن ست حبات . . وحبة واحدة توسع شرايين القلب . . فكيف بنصف درينة ؟

– أعطينى حبة سابعة نفسى يضيق فى صدرى .

وأعطته حبة سابعة . . واستجاب الله لنداء فريد فحطت الطائرة بمطار بيروت يوم الأحد ووصل سالماً إلى البيت .

إلى سن الفيل ، ،

وفى البيت كانت خطيبته السيدة سلوى القدسى تحيط به وترعاه وتشرف على راحته . لكنه لم ينم فقد انتابته أزمة ألم شديد كادت تمزق صدره تمزيقاً . . لقد تضخم القلب كل التضخم . . ومع القلب تضخم الكبد . . واحتلك القلب بالكبد فسبب الألم الشديد .

وجاء الدكتور إبراهيم الحجار . . وأمره فوراً بالانتقال إلى المستشفى القريب مستشفى الحايك فى سن الفيل . . ورفض فريد . . لكن الطبيب أصر . .

فقال له فريد . .

إذا أدخلتنى الاثنين فمتى تخرجنى ؟ وفكر الطبيب قليلا . . وقال – الخميس . . وقبل فريد . .

وفى الجناح رقم ٢٠٢ بمستشفى الحايك دخل الدكتور حجار فى صراع مع الموت ، محاولا إبعاد شبحه الرهيب عن الموسيقار الصديق . .

يوم الاثنين كان يوم الخطر المدلهم . . فقدتوقفت كليتا فريد عن العمل . . وتعبأ جسمه بالماء . . فوق التضخمين القاتلين . . تضخم القلب وتضخم الكبد . . وأيقن الطبيب أن الحالة خطرة جداً . . ولم ينكر هذه الحقيقة الأليمة عن خطيبة فريد ورفيقته وذويه وفى مقدمتهم شقيقه منير ، وقريبه السيد رياض جنبلاط زوج السيدة كاميليا ابنة المرحومة أسمهان . . وقرروا استدعاء الأخ الأكبر الغائب فى الكويت السيد فؤاد الأطرش . . الذى ذهب من القاهرة إلى درة الخليج ليحتفل بعيد الأضحى مع بعض أصدقائه فتولى منير أمر الأتصال التليفونى به واستدعاءه على جناح البرق . .

لكن الطبيب اللبنانى المشهور استطاع بعلمه وبراعته أن يبعد الألم عن فريد . . .

ويجعله ليل ذلك الاثنين . . ينام حتى الصباح . .

ويوم الثلاثاء تحسنت صحته ولكن الزيارات ظلت ممنوعة عليه . . سلوى القدسى ودنيز جبور وحدهما ، كانتا تملكان حق الدخول إلى جناح الموسيقار العليل .

يوم الأربعاء أشرق وجه فريد فرفع الطبيب يديه إلى السماء وقال : معجزة .

ثم اقترب من منير الأطرش وقال له :

اجعلوا تاريخ ٢٣ من كل شهر . . عيد ميلاد جديد لشقيقكم فريد . .

ويوم الخميس صحا فريد تماماً . . ولكن أحداً لم يكن يعلم أنها صحوة الموت .

قال لشقيقه فؤاد الأطرش الذى وصل لتوه من الكويت .

– اذهب إلى السينما واحضر فيلمى الجديد « نغم فى حياتى » وأعطينى رأيك الصادق به . . احضره أنت لأن القدر ضن على بحضوره مع الجمهور . . مساء الاثنين أدخلونى إلى المستشفى ولم يأخذونى إلى السينما . .

ونظر فريد إلى صديقه روبر خياط . . وسأله عن أغانى الفيلم الثلاث حبينا حبينا ، علشان ماليش غيرك ، وياحبايبى ياغايبين . فقال له .

– أنزلناها اليوم إلى الأسواق . . وتطلع إلى طبيبه الخاص وقال له :

وعدتنى أن تخرجنى من المستشفى يوم الخميس . . واليوم هو الخميس . . فلماذا لم تف بوعدك ؟

أجاب الطبيب . . لن أخرجك من هنا قبل آخر السنة . . اهدأ ودعنى أعمل وأتكل على الله . .

آخر الوجوه والكلمات :

وفى تمام الرابعة من بعد ظهر الخميس الواقع فى ٢٦ كانون الأول ١٩٧٤ تسلل شبح الموت إلى جناح الموسيقار الكبير فريد الأطرش فى مستشفى الحايك بسن الفيل .

كان فى جناحه وجهان حبيبان . وجه سلوى القدسى ووجه رياض جنبلاط .

أما دنيز جبور فكانت قد ذهبت إلى مطار بيروت لتسأل عن حقيبة فريد الضائعة إنها حقيبة تحتوى على جميع التقارير الطبية والصور بالأشعة التى أخذت لفريد فى لندن . . لقد ضاعت هى الأخرى مابين لندن وبيروت ولم يجدوها حتى الآن . .

قال فريد لسلوى :

إنى جائع .

فتقدمت منه وفى يدها كاسة مهلبية ووضعت بفمه ملعقة . . ولكنه لم يقو على تقبل ملعقة ثانية .

قال لسلوى :

عاد الألم إلى صدرى . . إنى متضايق . .

وأسرعت سلوى تستدعى الممرضة الفرنسية التى جعلوها راعية لفريد . . وتتصل تليفونياً بالدكتور حجار . .

واقترب رياض جنبلاط من فريد يمسكه بيديه . . فقال له :

– إننى متضايق يا رياض أنقذونى !

– ما بك ؟ بماذا تحس ؟

– بحرق محرقة فى باب معدتى . .

– ماذا أكلت ؟

– ملعقة مهلبية . . دخيلكم أنقذونى . .

– تعال ارفع رأسك قليلاً عن الوسادة . .

– ارفعنى . . ورفعه قليلاً عله يريحه ولكنه لم يسترح . . ودخلت الممرضة الفرنسية وهى تحمل جهاز أوكسجين وضعته على فم فريد وأنفه فصرخ بها :

– أبعديه عنى . . أكاد أختنق . .

– إنه يريحك . . يا رياض . . أرجوك . . مدد رجلى على السرير . .

– إنى لا أستطيع أن أحركهما ومد رياض يده اليمنى إلى ساق فريد ليمددهما . .

وأسند رأسه بيده اليسرى وأخذ يزيحه قليلاً . . وفجأة . . تلاشى فريد بين يدى رياض . . وسقط رأسه على الجدار القريب واصطدم به .

وهنا كان قد وصل الدكتور حجار مع معاونيه فأخذوا يدلكون قلبه وجسمه سريعاً ولكن . ولكن فريد كان قد لفظ آخر أنفاسه .

كان فريد قد مات .

من عجائب القدر ، ،

لقد وعده الدكتور حجار بأن يخرجه من المستشفى يوم الخميس ، فوفى بوعده . . أخرجه ولكن ميتاً . . وأخرجه محنطاً إلى بيته فى اللويزة .

وإلى بيت الطائفة الدرزية فى بيروت . . وإلى القاهرة حيث أوصى بدفنه قرب شقيقته أسمهان ومن عجائب القدر أن فريداً ولد فى عيد الأضحى ومات فى عيد الأضحى . وأسمهان ولدت فى الماء وماتت فى الماء . .

كانت أمها حاملا بها . . وهى فى باخرة متوجهة من بلاد الأناضول إلى لبنان عام ١٩١٩ حيث عين والدها الأمير فهد الأطرش متصرفاً على منطقة حاصبيا فى عهد العثمانى .

وفى البحر ولدتها . وشاء والدها أن يسميها « بحرية » تيمناً بالبحر . . ولكن والدتها رفضت هذا الاسم وفضلت عليه « أمل » . . ولما احترفت الغناء كانت « أسمهان »

ثم ماتت أسمهان غرقاً فى الترعة . . وقد أكرمه ربه فلم يمته فى طائرة أو فى سيارة أو فى شارع بل أماته فى بيته وبين أهله وأحبابه ومعهم الملايين التى أحاطته بقلوبها فى كل بقعة من بقاع الأرض .

من قتل فريد ؟

و . . . . . يبقى السؤال الكبير الذى لاح على شفاه الناس وهم يذرفون الدموع على موسيقارهم المحبوب . . ويرددون : إنه لا يزال صغيراً . . فلماذا مات ؟ وهل هناك من تسبب فى موته ؟

هل هناك مرض القلب وحده ؟ هل هناك العلاج الذى لم يكن واقياً ؟

هل هو الدواء الكثير ؟ هل هو السهر الطويل ؟ هل هو العذاب الدائم ؟

هل هو الحب من غير أمل ؟ هل هو فى عدم الانقياد إلى رغبات الأطباء. والتخفيف من حدة الأكل والسهر والإرهاق ؟

هل هو فى إحيائه الحفلات الغنائية الطويلة فى الوقت الذى كان يجب أن يركن فيه للهدوء والراحة الاستسلام للسرير ؟

هل هو فى تحدى النصيحة الحاسمة التى قالها له الدكتور دبغى : إما أن تغنى وتموت وإما أن تعتزل وتعيش ؟

إن الذى قتل فريداً الأطرش هو فريد الأطرش . . قتله حبه لفنه . وقتله إحساسه بوجوده وقتله حبه لجمهوره الذى كان يطالب به إلى الأبد . . وقتله حقده على قلبه الذى أعطى الفن والحب والدنيا كل شىء . . ولم يعطيه هذا القلب شيئاً .

وقتله مع حقده على قلبه حبه الكبير للحياة . .

ولكن الذى لم يقتله أبداً . . هو إيمانه بالله تعالى . . خالق السماوات والأرض ومانح الحياة لمن يشاء . . والذى لاتسقط شعرة من رؤوسنا إلا بأذنه وإرادته فى ذمة الله ياصديقى الحبيب . . .

يامن جفت دموعى حزناً عليك ، ويكاد يجف مع دموعى حبر قلمى . .

جورج إبراهيم الخورى